

المقامات الصوفية في شعر سيدي لخضر بن خلوف.  
الأستاذ: حاكمي لخضر، جامعة الدكتور مولاي الطاهر بسعيدة.

-توطئة:

لا يخفي على أحد أنّ شعر سيدي لخضر بن خلوف يجمع في ثناياه نبرات ثورية وأخرى عقدية، ترتطم الأخيرة منها بطرق التصوف الإسلامي؛ الراسمة عبر تاريخها وطقوسها الشعرية معالم روحية، تسعى عن طريقها إلى تكوين الإنسان تكويناً روحياً؛ انطلاقاً من قوله صلى الله عليه وسلم: «**إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّهُ، ألا وهي القلب؛**»<sup>1</sup> ولا غرو أنّ شعر سيدي لخضر بن خلوف الصوفيّ، تظهر صوفيّته حين حديثه عن مظاهر روحية؛ تبدو في عصرنا هذا أحوج ما يحتاجه المرء، في وقتٍ طفق فيه الفكر الماديّ يأخذُ أبعاد في غاية الخطورة، و التي قد تقلل من إنسانية الإنسان بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

إنّنا حينما نرتاد شعر سيدي لخضر في لحظة من اللحظات، تستوقفنا مظاهر الرُهد في الدنيا، والدعوة إلى الآخرة، وهذا هو المقصد الأسمى الذي جاءت به الشريعة الإسلامية السّماحة؛ بل إنّنا حينما نعتلي الكلمة الشعرية لسيدي لخضر بن خلوف، نجد أنّ عمُر هذا الشعر طويلٌ طولَ المرحلة البشرية، وطافحٌ طفاحه الحقيقة التي لا يخلّف حولها اثناً؛ بل قل: إنّ شعر سيدي لخضر تتجلى فيه الشاعرية، ليس لأنّه تأليفٌ شعريّ من الملحون فقط، بقدر ما أنّ هنالك نبرات لغوية يقف القارئ مشدوهاً في نسجها، لأنّ هذا الأخير ليس ممّن قام بتجربة سيدي لخضر أولاً، و ليس ممّن هام في معراجيّة الحبّ الإلهيّ ثانياً.

حينما نقرأ أمّهات المصادر التي تخصّ التصوف الإسلاميّ<sup>2</sup>، ننتقي عبر التعابير الشعرية لسيدي لخضر - رحمه الله تعالى - مقامات صوفية، تبدو كمن ينزاح من رتبة إلى أخرى، حسب نبوغه الروحيّ؛ و نستشفّ تلكم المقامات من خلال توظيف العارف بالله بعض الأغراض التي ألفتها في الشعر العاديّ و التي تُظهرُ بقوة البنية الروحية، و اللغة العليا\* التي نعتبرها الوجه الحقيقيّ لرحلة هذا التأليف:

أولاً: مقام الحبّ و العشق مرهونٌ بغرض المدح:

نعتقد أنّ مدح سيدي لخضر للرّسول صلى الله عليه وسلم لم يكن المدح الذي ألفتناه ضمن الأغراض الأدبية (الشعرية)؛ إنّما كان مدحاً يُعبّر عن مرحلة مقامية من مقامات الرّوح الصوفية، لأنّه ليس مقصوداً به مدح التّكسّب، أو مدحاً لخوف العقاب، أو هيبة من حاكمٍ، إنّما المقصودُ به صبابة الحبّ الروحيّ غير المعتود، و هو حُبُّ الله و حُبُّ رُسوله صلى الله عليه وسلم و آل بيته الطاهرين؛ اقتداءً بما جاء في الآية، و ما نصّ عليه الحديث الشّريف<sup>3</sup>.

إنّ مقام العشق عند سيدي لخضر بن خلوف هو مقامٌ نراه يأخذُ أعلى نسبة له في أشعار هذا المتروّج<sup>4</sup>؛ لأنّنا نعتقد أنّ بين سيدي لخضر، و بين الرّسول صلى الله عليه وسلم كما بين المرء وظلّه الدالّ عليه، لأنّ هناك

صلةً روحيةً مستمدةً من نظرة الأئمة، و نسل سيدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>5</sup>، وإذن، فمدحية الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تبدو مدحيةً تضاماً كُلياً، تنبُع من شجرة مباركة، ولذلك تبدو العلاقة روحيةً في هذا المدح بالدرجة الأولى، وتظهر تواترية هذا المدح - فيما نحسب - في حُبِّ التَّوْحُدِ بِالذَّاتِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، و تقليديها، وأكثر من ذلك الهَيَامِ بِهَا، فشرعنا - ونحن نقرأ قصائده الواحدة تلو الأخرى - أَنَّهُ يُجَلِّلُ هَذَا الْمَدْحَ بِمِعْرَاجِيَّةِ الْوَصُولِ، فقرأه بمدح سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، و يمكُثُ عند أماكن وصوله: (البُراق، سبع سماوات، العرش، الجنة، الإسراء و المعراج)، فمثلاً يقول في قصيدة ( العالم بالغيوب سيدي:

نَحْمَدُ رَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ      رَاوِي عَنْ لَقَطَابِ جُمْلَةٍ  
اللَّوْحِ وَالْعَرْشِ بِشَوْفِ لَحْظِي      وَالْحَرْفِ أَلِيٍّ بَغِيَّتِ يَتَلَى  
السَّابِغِ دَرَّتْ فِيهِ عَرَضِي      نَنْظُرُ فَوْقَ الْبَسَاطِ الْأَعْلَى  
خَلِيَّ الْحَاسِدِ يُزِيدُ حَسْدي      يَا وَيْحُو مَنْ كَانَ يَغْتَبِ

ويقول في قصيدة (اختارك الواحد الأحد):

التَّاسِ صَدُقُوا بِخِبَارِكِ      \*\*\*      جَهَلُوا حَقِيقَةَ الْمَعْرِفَةِ  
لَوْ كَانَ يَعْرِفُوا مِقْدَارِكِ      \*\*\*      يَا كَامِلَ الْبَهَى وَالصِّفَةِ  
يَسْتَحْسِنُوا بِصَهْرِكِ      \*\*\*      عَسَى بِشَاعِرِكِ وَالشُّرْفَةِ<sup>6</sup>

والمعرفة في المنظور الصوفي، تعني: « معرفة أسماء الله تعالى، ومعرفة التحليلات، ومعرفة خطاب الحق بلسان الشرع، ومعرفة كمال الوجود، ومعرفة الإنسان من جهة حقائقه، ومعرفة الكشف الخيالي، ومعرفة العلل والأدوية...»<sup>7</sup> وهاتيكَ معارفٌ جلَّتْ عن الفهم، إلا لأرباب الأحوال، وأهل الذوق ممن تكشفت لهم الأنوار، وتلاشت عن بصيرتهم الحُجُب.

وما دمننا قلنا إنَّ النَّبَرَ الْمَدِيحِيَّ يَدَلُّ فِي الْأَصْلِ عَلَى نَبْرِ تَعَشُّقِيٍّ، فحينئذٍ تظهر كشوفاته وإعلاناته من

لدى سيدي لخضر نفسه، حينما قال:

يَا عَاشِقِينَ خُودُوا بِيَدِي      دِيرُوا صُحُوفَكُمْ وَاقْرَأُوا فِي لَسَوَازِ  
قَبْلَ لَا يَنَادِي الْمُنَادِي      عَزْرِينَ يَاكَ يَتَقَبَضُ فِي لَعْمَارِ  
الْعَشْقُ بَانَ وَفُضِحَ سِرِّي      وَذَاتِي فَانِيَةً مَدْهُولَةَ  
يَا زَائِرِينَ أَجُوا عِنْدِي      وَنُقُولُ مَرْحَبًا بِالصَّيْفِ إِذَا زَارُ<sup>8</sup>

وَالْعِشْقُ فِي الْمَعْتَقِ الصُّوفِيِّ هُوَ « آخِرُ مَقَامَاتِ الْوَصُولِ وَالْقَرَبِ، فِيهِ يُنْكَرُ الْعَارِفُ مَعْرُوفَهُ، فَلَا يَبْقَى عَارِفٌ وَلَا مَعْرُوفٌ، وَلَا عَاشِقٌ وَلَا مَعشُوقٌ وَلَا يَبْقَى إِلَّا الْعِشْقُ وَحْدَهُ، وَالْعِشْقُ هُوَ الذَّاتُ الْمُحَضُّ الصَّرْفُ، الَّذِي لَا يَدْخُلُ تَحْتَ رَسْمٍ وَلَا نَعْتٍ وَلَا وَصْفٍ... فَإِذَا امْتَحَقَّ الْعَاشِقُ وَانطَمَسَ، أَخَذَ الْعِشْقُ فِي فَنَاءِ الْمَعشُوقِ وَالْعَاشِقِ، فَلَا يَزَالُ يُفْنِي مِنْهُ الْاسْمَ ثُمَّ الْوَصْفَ ثُمَّ الذَّاتَ؛ فَلَا يَبْقَى عَاشِقٌ وَلَا مَعشُوقٌ، فَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ الْعَاشِقُ بِالصُّورَتَيْنِ، وَ

يَتَّصِفُ بِالصِّفَتَيْنِ، فَيُسَمَّى بِالْعَاشِقِ وَيُسَمَّى بِالْمَعْشُوقِ»<sup>9</sup> ومن هنا يظهرُ العِشْقُ ممارسةَ حَقِيقَةٍ فِي حَيَاةِ سَيِّدِي  
لِخَضِرِ الرُّوحِيَّةِ، مَا دَامَ يَعْنِي فَنَاءً كَلِيًّا فِي حَضْرَةِ اللَّطَائِفِ الرَّحْمَانِيَّةِ، أَوْلَيْسَ هُوَ الْقَائِلُ:

العِشْقُ بَانَ وَفُضِحَ سِرِّي وَ دَاتِي فَأَنِيَّةٌ مَدْهُوَلَةٌ

ونلغني في أبيات أخرى اجتماع لواعج الحب بينان الشوق؛ لتنتهي بعشقٍ روحانيٍّ، يعزُّبُ عن اللُّغَةِ أَنْ  
تُصَوِّرَهُ، يَقُولُ الْعَارِفُ:

يَا رَبَّ الْعَرْشِ هَزَنِي رِيحَ التَّشْوِيقِ لِمَقَامِ الرُّسُولِ النَّبِيِّ مَا صَبَّتْ طَرِيقُ

عَشْقِي وَ مَحَبَّتِي مِنْ شَقِّ الْمَشْرِيقِ أَنَا مَسْكِينٌ قَلَّ زَادِي

مَا صَبَّتْ مِنْبِنٍ يَتَحَمَّلُنِي يَا سَادَاتُ يَحْمَلُ رُوحِي مَعَاهُ غَادِي

أَنْشَمُ تَرَابَ أَرْضِ عُرْبَةٍ دُونَ بُحَاتٍ يَا سَعْدِي بِالرُّسُولِ سَعْدِي

مُحَمَّدَ تَاجَ الْأَنْبِيَاءِ سَيِّدَ الْأُمَّاتِ يَا سَعْدِي بِالرُّسُولِ سَعْدِي<sup>10</sup>

وإذن، فهذه بعض المظاهر الرُّوحِيَّةِ الَّتِي تَبَرَّرُ حَقِيقَةَ الشَّاعِرِ الشَّعْبِيِّ الْجَزَائِرِيِّ، وَمَدَى اتِّسَاقِهِ وَانْسِجَامِهِ  
جَسَدًا وَ رُوحًا مَعَ تَعَالِيمِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ؛ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ الشَّاعِرَ ابْنُ بَيْتِهِ، وَفَرَعٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَدِّ الْفِكْرِيِّ الْقَادِمِ  
مِنْ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، حِينَمَا طَفِقَ الْفَتْحُ الْإِسْلَامِيَّ يُبَدِّي تَغْيِيرًا عَارِمًا لِفَهْمِ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ؛ وَ اهْتَمَّ بِالْجَانِبِ  
الرُّوحِيِّ لِلْإِنْسَانِ، مِثْلَمَا اهْتَمَّ بِالْجَوَانِبِ الْجَسْمِيَّةِ فِيهِ.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْوَلِيَّ أَصْبَحَ مُضْرَبَ الْمَثَلِ فِي مَدْحِ سَيِّدِ الْخَلْقِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَ مَدْحُهُ كَانَ فِي الْوَاقِعِ  
نَقْلًا أَمِينًا لِشَخْصِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِالتَّالِيِ أَصْبَحَ شَعْرُ هَذَا الْعَارِفِ الْمَكْرَمِ «فَنَا قَائِمَ الْكَيَانِ نَاضِحِ  
الصُّورِ، مَكْتَمِلِ الْخَصَائِصِ، تَنَاوَلَ فِيهِ سِيرَةَ الرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَا فِيهَا مِنْ صِفَاتٍ وَ شَمَائِلِ»<sup>11</sup>  
وَ قَدْ رَأَيْنَا سَيِّدِي لِحَضْرَةِ بِنِ خُلُوفٍ - مِثْلَمَا شَاءَ لَهُ الْقَدْرُ أَنْ يَكُونَ - مَرْفُوعَ الْجَنَابِ وَالْجَنَانِ، مِنْ خِلَالِ  
ارْتِفَاعِ ذِكْرِهِ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبِهَا، بِرَغْمِ مَنْ أَنَّ شَخْصَهُ الْمَوْقَّرَ عَاشَ فِي فَتْرَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْهَجْرِيِّ<sup>12</sup>.

ثَانِيًا: مَقَامُ التَّوْبَةِ:

التَّوْبَةُ فِي عُرْفِ الصُّوفِيَّةِ «أَوَّلُ مَقَامٍ مِنْ مَقَامَاتِ الْمُنْقَطِعِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى»<sup>13</sup>، وَ قَدْ سُئِلَ دُو الثُّونِ رَحِمَهُ اللَّهُ  
تَعَالَى عَنِ التَّوْبَةِ، فَقَالَ: تَوْبَةُ الْعَوَامِّ مِنَ الذُّنُوبِ، وَ تَوْبَةُ الْخَوَاصِّ مِنَ الْغَفْلَةِ<sup>14</sup>، وَ لَمَّا كَانَتْ التَّوْبَةُ بِدَايَةِ السَّالِكِينَ  
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، رَأَيْنَا نَبْرَاتَ هَذَا الْمَقَامِ مُتَحَلِّيَةً فِي شَعْرِ سَيِّدِي لِحَضْرَةِ عَلِيِّ شَكْلِ أَدْعِيَةٍ مَحْتَوَاةٍ فِي قَصِيدَةٍ نُظِّمْتُ لِهَذَا  
الْغَرَضِ، وَأَدْعِيَةٌ تَتَخَلَّلُ قِصَائِدَ الْمَدِيحِ، فَمِنْ التَّنَوُّعِ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَا مَنْ هُوَ حَقٌّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (اغْفِرْ) ذَنْبِي بِتَوْبَةِ آدَمَ وَ حَوْأَ

وَ بِالْحَرَمَيْنِ وَ الصَّفَا وَ الْمَرْوَا (أَقْبَلْ) يَوْمَ الْحِسَابِ عُذْرِي

(اجْعَلْ) لِي مَا اسْعَيْتُ لَيْلَةَ هَبِيَّةٍ وَ الطَّاغُوتُ كَانَ كُفْرِي

إِيمَانِي بِيكَ سَرَّ وَ عَلَانِيَّةٍ (ارْحَمْ) يَوْمَ أَنْزُورُ قَبْرِي

(أَغْفَرَ) لِي مَا مَضَى بَعَاغِرِ التَّنْزِيلِ      و(اصْلَحْ) لِي مَا بَقِيَ بِفَضْلِ الْمُرْمَلِ  
و بالتَّوَرَاةِ وَ الزُّبُورِ مَعَ الانجِيلِ      وبالفُرْقَانِ (حُطَّ) وَزَرِي<sup>15</sup>

ومن النوع الثاني، قوله:

يَا غَفَّارُ أَغْفِرْ ذَنْبَ الشَّاعِرِ      وَالْحَاضِرِينَ وَ السَّامِعِينَ لَفْظُ انشَادِي  
يَا سَاتِرَ الْعُيُوبِ أَنَا عَبْدُكَ قَاصِرٌ      لَا عِلْمَ لِي بِأَعْمَالِ مَا هَيَّتَ زَادِي  
الصَّبَاحُ صَبَّحَ وَ الظُّهُرُ وَ جَازَ العَصْرُ      وَضِيَاقَتِ العَشِيَّةِ نَادَى المُنَادِي  
رَبِّ حَنَنْ لِي القَلْبَ القَاسِحَ      يَا خَالِقَ العِبَادِ أَنْتَ أَلِي تَرَعَانَا  
عَبْدُكَ الضَّعِيفُ مُذْنِبٌ ذَمُوعُو سِيَاحِ      الجُودِ وَ العَفْوِ مَنْ فَضْلُكَ يَرَجَانَا  
سَعْدِي مَعَ النَّبِيِّ بَتَ مَعَاهُ البَارِحِ      مُشَرَّفِ النَّسَبِ جَانِبُهُو لِي مُوَلَانَا<sup>16</sup>

فالعارف يتقرب إلى الله عز وجل بالطاعات، فإذا تمكّن و تحقّق بذلك السلوك، شملته أنوار الهداية، وأنته العناية، وحوته الرعاية، وشاهد ما شهدته بقلبه من عظمة سيّده، فتاب عن الملاحظة والسكون، والالتفات إلى ما كان من طاعته وأعماله وقرباته في حين إرادته و بداياته<sup>17</sup>، فشتان بين تائب يتوب من الذنوب والسيئات، وتائب يتوب من الزلل والغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات.

ثالثاً: مقام الزهد مرهون بغرض الحكمة و الموعظة:

والزهد كما يرى الطوسي رحمه الله تعالى: «مقام شريف، وهو أساس الأحوال الرضية، والمراتب السنئية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل، والمنقطعين إلى الله، والراضين عن الله، والمتوكّلين على الله تعالى، فمن لم يحكم أساسه في الزهد، لم يصح له شيء مما بعده، لأنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، والزهد في الدنيا رأس كلّ خير وطاعة.»<sup>18</sup> فإذا تسوّى لنا معرفة الزهد في رؤيته الصوفية الصافية، أمكننا استخلاص بعض مظاهره في شعر هذا العارف الورع؛ ونستخلص - دون شك - نوازعه وأبعاده التي قعدت لكي نوثقه عند سيدي لخضر.

عند قراءتنا لشعر سيدي لخضر بن خلوف تستوقفنا - إضافة إلى مقامي: الحبّ و العشق - مقام الزهد، الذي رأيناه شديد الصلّة بمظهري: الحكمة و الموعظة، اللذين ينشآن عن مراسم وعبرة كفيّلين بتوحيّ الحذر من الدنيا، واعتلاء مقامات الآخرة؛ وهذا المظهر الكائن فيها، يقوّد العارف - في غيابه الروحي - إلى ارتياد مراتب الزهد حسب الحال والتمكّن<sup>19</sup>، لأنّ التمكن مكمّن الرُسوخ على شيء، وعدم الانزياح عنه مهما حصل من أمور تدعو إلى التخلّي عنه.

ألفينا مقام الزهد متمظهاً في أبيات شعرية عديدة، يبدو فيها عزوف العارف عن الدنيا، والحثّ على تهمة النفس والاستعداد للآخرة؛ غير أنّ هذا العزوف نراه عزوف المتروحن المتوجّس الأثر الملائكي، والغائب بكليته عن الخلق، وإلا لكانت هذه الحكمة يسوّفها أي إنسانٍ خاض تجارب في هذه الدنيا. ونعتقد أنّ الصفة الزهدية لدى

سيدي لخضر تبقى زهدية العلم و اليقين، وليس خشية العقاب مثلما يعتقد جلّ الناس، وإلا لكان ما قاله من شعر لا يقتصر على مجرد عدّه غرضاً في تجارب دنيوية فقط.

إننا نرجح هذا كون سيدي لخضر رجلاً صوفيّاً<sup>20</sup> بالدّرجة الأولى، وهذا ما تُشيرُ إليه أغلب قصائده؛ ومن هنا جاء الفرق واضحاً بين تجربة الشّاعر في رحلته الدّنيويّة مع المجتمع والنّاس، وهو يدخلُ ضمن أهل الأدب بصفةٍ عامّة، وتجربة الصّوفيّ في رحلته الأخرويّة، ويدخلُ مع الخواصّ من أهل التّعبير.

يقول سيدي لخضر - رحمه الله تعالى في قصيدته (آ سيدي فارس المنع):

الله يثبتّ الشرع      يوم أن نصحى زميم ما بين لحادي  
أنهز الشوم و الوداع      مطروح على التراب لا حي اينادي  
دار الظلمة بلا شمع      يوم فراقي مع اخباي و اولادي  
يوقعلي الخوف و الفرغ      صلى الله عليك يا حمدي

ويقول أيضا:

يا عبد إذا بنيت ما يبقى بُنيان      حيطانك تمسى اخراب  
و انتايا لأبد من ليلة لكفان      عظمك يرشى على التراب  
دير بالآية و جانب طريق العصيان      و انظر ما قال في الكتاب

وقال أيضا:

يا عبد غلاش راك تتسنى      بركاك غير ثوب و صلي  
راك ظان منزلك في الجنة      الحور و القصور العالي  
من غير فرض و لا سنة      ما زلت غشيم يا هبالي

وقال: الحد و الاثين و الثلاثة و الاربعة      و نا بين الجبال سايح طول اللين  
عيني يا عاشقين سخفت بالدمعة      ترعى لفصال من عواقب جيل بجيل  
دخلت تلمسان في نهار الجمعة      في جبل خيف بت ساجد للجليل

غير أنايا و سبختي<sup>21</sup>

تمعن في مظاهر الصفات الزهدية في الأبيات الثلاثة الأخيرة، لا شك أنك ستجد منها مظهر السّياحة، والبكاء على تعاقب السنين، والإكثار من السجود بالليل في الخلوات، وحمل السّبحة، باعتبارها مظهراً دالاً على التمسك بالأوراد؛ وهذه الطريقة نراها بالخصوص عند أهل التصوف، الذين يرون أن الذكر لا يؤخذ إلا من لدن شيخ عارف؛ بقي المريد طريق المهالك. وإذا ما جمعنا بين حالتي: التصوف كممارسة روحية، وبين الزهد كمرحلة روحية من مراحلها، أمكننا القول: إن زهد سيدي لخضر هو زهد خاصة الخاصة المتمثل في إعراضهم عن كل ما

سوى الله من الأغراض والأعواض، الظاهرة أولاً، والباطنة ثانياً، وعن كل ما هو غير ثالثاً، وهذا الزهد يتضمن الرجاء والرغبة والتبطل... وهي ما رأيناها كائناً في شعر هذا الصوفي.  
انظر مثلاً إلى قوله:

راعِبٌ فِي الدُّنْيَا بَزْهَدِي      فِي دِينِي شَفِيتُ الاَعْدَا  
يَا قَطْعَانَ يَدَيَا بِيَدِي      مَا نَفَلْتُ حَتَّى بَسْجَدَةَ  
يَا مُحَمَّدُ يَا سَيِّدِي      صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ لَبَدًا<sup>22</sup>

ثم إنَّ الزُّهْدَ عند أهل الباطنِ يُجِئُ بالضرورةِ إلى زهدٍ أرقى وأعظم، وهذا هو الزُّهْدُ في الزُّهْدِ، الذي معناه استِحْقَاقُك لِمَا زهدت فيه، ولهذا كان الزُّهْدُ في الدُّنْيَا سَيِّئَةً في نظر الحَوَاصِّ، لأنَّه لا يوجد شيءٌ ما سوى الله أعظم حتى يرغب العارفُ فيه أوعنه، و من تحقَّق بهذا النَّظر استوت عنده الحادِثات، بتحقيقه شمول إرادة الحقِّ لجميع المرادات.

#### رابعاً: الكرامات مرهونة بالعطايا الإلهية:

تعني الكرامة عند أهل الكشف: بُلُوغُ العبدِ المراد قَبْلَ ظُهُورِ الإرادة<sup>23</sup>، وهي بالتَّالِي مَدَدٌ إلهيٌّ يُلْهِمُهُ تعالى إلى من يشاء من عبادِهِ، فلا تتعلَّقُ إذن برياضة، ولا مُجَاهَدَةً، وإنما تتعلَّقُ بعِلْمِ الله بعَبْدِهِ، بما لا دراية لهذا العبدِ بِهِ. وقد قَسَمَ ابنُ عربيِّ الكرامة- في مؤلَّفِهِ (الفتوحات المكيَّة)- إلى قسمين: كرامة حسيَّة، وكرامة معنويَّة، أمَّا الكرامات الحسيَّة: فهي كرامات العاقبة، مثل: المشي على الماء، وطيُّ الأرض، والاطِّلاع على الكوائن، والإخبار بالماضي والحاضر والمستقبل، أمَّا الكرامات المعنويَّة: فهي كرامات الخاصَّة من عبادِ الله، وهي كرامة العمل بشريعة القرآن والتَّمسُّكُ بِهَا<sup>24</sup>.

**1** كرامة الصَّلَاةِ على النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والدَّرَايَةِ بالدِّينِ، والإِلْهَامِ الشَّعْرِيِّ المِتِّتَالِي، والمُرْصَعُ بِالْوَانِ الحِكْمِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ: وتتجلَّى من خلال قوله:

يَكْفِينِي صَدَقِي وَنِيَّةً      لَخَضَرَ كَيْفَ يَكُونُ خَاطِي  
تَسْعَةً وَتَسْعِينَ رُؤْيَةً      وَالعَاطِي مَا زَالَ يَعْطِي  
كَافَانِي مَوْلَ الهَدِيَّةِ      وَاقْبَلْ لِي مَوْلَايَا شَرْطِي

وقال:

عَرَفُونِي كِي رَجَعْتُ جَائِزٌ      فِي دِينِي كَامِلُ الفَهَامَةِ  
وَاعْطَانِي اللهُ عِلْمَ فَارِزٌ      مِنْ كُنُوزِ عَالَمِ العَلَامَةِ  
نَبَّهْنِي لِمَدِيخِ سَيِّدِي      سَقَانِي مِنْ مَاهِ كَاسِ طَيِّبِ  
أَمْلَاهُ بَمَدِيخِ طَهِّ الهَادِي      أَحَلَّى مِنْ العَسَلِ وَغَنَبِ  
العَالَمِ بِالغُيُوبِ سَيِّدِي      سُبْحَانُو فِيهِ مَا نَكْذَبِ

أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ الْمُخَازَنْ      وَأَعْطَاهُ لِي فِيهِ مَا نَضِيعُ  
نُورَنْ شِعْرِي بِخُرُوفٍ وَأَزَنْ      بِسْمِ اللَّهِ وَ بِسْمِ الْمُشَفِّعِ  
فِي ذَهَبِي كُلِّ يَوْمٍ بَايَنْ      فِي الْوَسْطِ مُعَلِّمُوا بَطَابِعِ  
نَجْهَرَ لِلْبَشِيرِ وَرَدِي      مِنْ رَاسٍ غُنْصُرُو يَوَاتَبِ  
الْعَالَمِ بِالْغُيُوبِ سِيدِي      سُبْحَانُو فِيهِ مَا نَكْذَبُ  
الطُّلْبَةَ يَكْتُبُوا وَيَمْحُوا      لَخَضَرَ يَكْتُبُ بِلَا قُلُومَا  
رَبِّي ذَا الْقَوْلِ زَادُ شَرَحُوا      مَحْبُوبِي صَاحِبِ الْغَمَامَةِ<sup>25</sup>

فالتباهة إلى حُبِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُعَدُّ فِي حَدِّ ذَاتِهَا لَوْنًا مِنْ أَلْوَانِ الْكِرَامَةِ، وَاجْتِبَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ، لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾<sup>26</sup> فما بالك - أيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الصَّلَاةُ مُمَارَسَةً يَوْمِيَّةً عِنْدَ سِيدِي لِحُضْرِي، حَتَّى هَامَ بِهَا فِي السَّرِّ وَالْعَلَنِ، وَفِي بَطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَالشُّعَابِ، وَالْجِبَالِ، وَفِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ... وَفِي سَائِرِ الْوَقْتِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ لَهُ؛ وَقَدْ انْتَهَتْ بِلِقَائِهِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِنُتْرَجَمَ حَقِيقَةُ هَذِهِ الصَّلَاةِ، وَتِلْكَ الْحُبَّةِ الرَّاسِخَةِ فِي عُمُرِ هَذَا الْعَارِفِ.

(2) كرامته في اللقاء برسول الله و سيدنا جبريل عليهما السلام:

مَا هُوَ شَرًّا مِنِّي وَ لَا بَيْعَةَ      وَ لَا مِنْ الْفَارَسِينَ رَاكِبِ غَوَازِ  
بَيْنِي وَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ شَرِيعَةَ      هُوَ يَشُوفُ وَ نَا نَقْرًا لَسْطَارِ  
كَيْمَا يَحِبُّ سِيدِي لِيهِ الْمُطِيعَةَ      يَوْمُ الْخَمِيسِ بَاتَ مُعَايَا فِي الدَّارِ  
ذَكَرَ الرَّسُولَ طَهَ فِيهِ وَزِيَعَةَ      أَنْدَهُوا نَوَزَعُوا مَنُوعَا يَا لِنَظَارِ  
ذَكَرَ الرَّسُولَ طَهَ فِيهِ وَزِيَعَةَ      صَلُّوا عَلَيَّ رُسُولَ اللَّهِ يَا حُضْرَارِ<sup>27</sup>

أَيُّهُ لُقْيَا هَذِهِ؟ بَلْ أَيُّهُ بُشْرِي يَا تُرِي؟ لَعْمَرِي، إِهْمَا بُشْرِي اللَّقَاءِ بِسَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَأَشْرَفِ خَلْقِ اللَّهِ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضِينَ؛ وَتَلَكُمُ الرُّؤْيَا تُؤَكِّدُ - عَنْ كُتُبِ - أَنَّ الطَّرِيقَ الَّذِي انْتَهَجَهُ الْعَارِفُ فِي حَيَاتِهِ طَرِيقٌ لَا مِرَاءَ فِيهِ، وَلَا رَيْبَ فِي مُصَدَّقِيَّتِهِ، عَمَلًا بِقَوْلِ الْمُصْطَفِيِّ الْكَرِيمِ: «مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى حَقِيقَةً، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي.»<sup>28</sup>

(3) كرامته في اللقاء بسيدي أبي مدين شعيب:

يَوْمَ الْجُمُعَةِ طَلَعْتُ سَارِي لِلْعِبَادِ      ثُمَّ نَادَى وَ هَبْ لِي بُومَكْحَلَةَ  
نَصِيبَ مَغَارَةَ مُجَاوِرَةَ سِيدِي عَابِدِ      وَقَفَيْتُ عَلَى السُّجُودِ مَا نَحُو الْقَبْلَةَ  
نَظَرْتُ خِيَالَ جَا يُفَدِّدُ كَالْفَدْفَادِ      يَا مَا حُسْنَهُ زَيْنَ مَكْمُولِ الطُّوَلَةَ  
وَ مَكَّنْتُ لَهُ بَرِيَّتِي

مُنِينٌ فَرَاهَا أَنَا وَ آيَاهُ تُسَالِمُنَا  
وَعَجَبَاتِهِ جَمَاعَتِي  
فُضِّيتُ مِنْهُ مُسَابِي وَ تَعَاهَدْنَا  
أَهْ يَا سَعْدِي وَ فَرَحْتِي  
مُحَمَّدُ الْفُضَيْلُ مُفْتَاخُ الْجَنَّةِ  
مُحَمَّدُ رُوحِي وَ رَاخَتِي  
بِتَنَا مَتَجَادِلِينَ اللَّيْلَ وَ مَا طَالَ  
عَلَى دِينِ النَّبِيِّ أَحْمَدُ طَهَ الْمَبْرُورُ  
قَالَ: أَنَا بَوْمَدِينُ أَصْلِي مَنْ لِفَضَالٍ  
مَنْ الْأَنْدَلُسُ هَمَّتِي فِيهَا مَذْكُورُ  
فَقُلْتُ لَهُ: أَنَا بِنَ خُلُوفٍ مَدَاخِ الْمُرْسَالِ  
هَآوِيَنِي بِالْحَدِيثِ يَا مَصْبَاخَ النُّورِ  
أَبَقَى يَنْظُرُ فِي صِيْفَتِي  
بَعْدَ كَمَالِ الْحَدِيثِ قَالَ لِي يَا لِكَحَلٍ:  
خُودُ الْأَمَانَةِ وَ سِيرُ بِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ  
مِئَةٌ وَ عِشْرِينَ شَيْخٌ مِنْ وَالِي كَامِلٍ  
طَبَعُوا لَكَ بِالنِّصَافِ هَا الْكَاعْطُ قَرَاهُ  
وَ كَمَّلَ الْخَتْمَةَ الشَّفِيعِ الْمُفْضَلِ  
سَقَاكَ بِالسَّرِّ الرَّمَزِي رَسُولَ اللَّهِ

أَدَيْتُ مِنْهُ أَمَانَتِي<sup>29</sup>

لقد تعرّض عددٌ من العلماء إلى سيرة سيدي أبي مدين شعيب دفين تلمسان؛ حياةً ونشأةً وتعلماً وسياحةً، فهو الشيخ الزاهد، العارف بالله، فطرب التصوف، القدوة، أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي<sup>30</sup>، الإشبيلي، المالكي، الصوفي، الفقيه، المحدث؛ وكنيته: «أبو مدين، تكتى بابنه مدين»<sup>31</sup> ذي الخصال الحميدة، دفين مصر. ويرجح بعض المؤرخين أن سيدي أبي مدين وُلد سنة [509هـ - 1115] <sup>32</sup>، وتوفي سنة 594هـ - 1200م، بعدما خاض فترات ذهبية في حياته، كانت مليئة بالعلم والحلم، والموعظة الحسنة، والكرامات التي لا زالت تُردّد إلى يومنا هذا. وإذا كُنّا نُقدّر الفارق الزمني بين سيدي أبي مدين شعيب وسيدي لخضر بن خلوف، فإنه يُقدّر بأربعة قرون تقريباً؛ وهي فترة تبدو - في اعتقادنا - قريبة في حياة سيدي لخضر من أخبار سيدي أبي مدين، الذي دَاعَ صيتهُ آنذاك مشارق الأرض ومغاربها، فكان ولازال - في تلك الحقبه - يُؤرّث في رُوح سيدي لخضر التائفة إليه، والشائقة إلى لُقياه؛ فكان أن حصلت تلك الرغبة، حينما هام على وجهه، وفيض الوجد يحمله، والوارد يبشره بالتقائه بأبي مدين شعيب يوم الجمعة في سفح الجبل عند مركز العبّاد ( يوم الجمعة طلعت ساري للعباد ثم نادى و هب لي بومكحلاة )، وتصبّر هذه المرحلة الروحية مرحلة يتوقّف فيها الزمن الصوفي، وتعاضد فيها الذاتان الصوفيتان تعاضداً روحياً، لتنتهي ببشارتين سعيدتين: الأولى: رضا أولياء الله تعالى عن سيدي لخضر، ونلفيها في قوله: (مئة و عشرين شيخ من والي كامل طبعوا لك بالنصاف ها الكاعط قراه) والثانية: رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه، من خلال قوله: ( و كمل الختمة الشفيغ المفضل سقاك بالسر الرمزي رسول الله).

(4) و من كراماته الجزم بوقوع شيء في المستقبل، وُحدوته فعلاً حتى في زماننا هذا:

إِذَا طَالَتْ عُمْرُكَ تُشُوفُ مَا تُشُوفُ  
تَتَفَكَّرُنِي وَ لَوْ كُنْتُ فِي الْكُفَانِ



و تَقُولُ مَا قَالَ الشَّاعِرِ وَلَدَ الخُلُوفِ      اللهُ يَرْحَمُ عِظَامَهُ يَا أَهْلَ الخِيسَانِ  
تَغِيْبُ نَاسَ الْيَزْرِ وَ تَبْقَى أَهْلَ الخُرُوفِ     تَابِعِيْنَ الرَّبَّآ وَ خَدَائِمَ الخِفَانِ  
المِسَالَةَ مَنْ دُونَ جَهَارِ صَافِيَةٍ     مُشَمَّتِيْنَ الصَّحْكَةَ تَمَثِيْلَ القُرُودِ  
لَا خَدِيْثٌ يُوَالِمُ لَا قُلُوبٌ صَافِيَةٍ     مُخَيَّبِيْنَ العَاهِدَ نَطْفَةَ مَنْ اليَهُودِ  
عَلَيْكَ صَلَّى اللهُ يَا سَعْدُ السُّعُوْدِ

الخُدَيْعَةَ تَكْتَمُ فِي جَوَامِعِ البِلَادِ     و العِبَادُ يَاكَ تُعُوْدُ خَائِفَةً  
الإِمَامُ يَشْمَرُ ذِرَاعُ عَلَى الرِّزَادِ     نَاكِرِيْنَ الأُصُولَ فِي الصَّفِّ وَاقِفَةً  
سَاجِدِيْنَ بَغِيْرَ وَضُوْ مَنْ أَوْلَادُ عَادِ     أَصْلُهُمْ مَنْ أَصْلُ الحَيَّةِ التَّالِفَةِ  
المَسَاجِدَ تَعْمَرُ بَاهِلِ المَخَالِيَةِ     الخُدَيْعَةَ فِي الجَوَامِعِ وَقْتُ السُّجُوْدِ  
لَا عَمَلٌ لَّا مَعْمُوْلٌ لَّا قُلُوبٌ رَاوِيَةٍ     المُفَاتَةَ تَرْجِفُ مَا كَانَ مِنْ يُجُوْدِ  
فِيكَ رَاهِمٌ يَرْجَاؤُا لَعْبَةً وَ رَاضِيَةٍ     يَا عُرُوسَ الجَنَّةِ يَا فَارَسَ الخُلُودِ  
عَلَيْكَ صَلَّى اللهُ يَا سَعْدُ السُّعُوْدِ<sup>33</sup>

هذا، ومهما قيل عن سيدي لخضر عبر هذه الأحرف، قد لا يستوعب جميع المقامات التي خاضها العارف في رحلته الصوفية، لأنه قد يصمت عن أحدها تجنباً لانفصاح السر، وذهاب الكرامات لقول عبد القادر بن محمد رحمه الله:

ولولا فُشُو السِّرِّ كُفِّرَ بِعَيْنِهِ لَبَحْتُ بِهِ، و لكن أولى التَّصَمُّتِ

#### -الإحالات:

1- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، الحديث 50، وفي كتاب البيوع 34، باب الحلال بين والحرام بين، الحديث 1910، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث 2997.  
2- و من أهم هذه المؤلفات:

- ابن عربي:

- ذخائر الأعلاق، شرح ترجمان الأشواق، تحقيق ودراسة نقدية: د/ محمد علم الدين الشقيري، كلية الدراسات العربية، جامعة ألمانيا، ط1، 1995م.

- الفتوحات المكية (أربعة عشر سفرًا)، تح: د/ عثمان يحيى، تصدير و مراجعة د. إبراهيم مذكور، المجلس الأعلى للثقافة بالتعاون مع معهد الدراسات العليا بالسربون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م.

- السبادي والغايات في معاني الحروف والآيات، ويليه العقد المنظوم فيما تحويه الحروف من الخواص والعموم، تح: سعيد عبد الفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2006م.

- كتاب الحُجُب، تح: سعيد عبد الفتاح، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2004م.

- اصطلاح الصوفية، تح: عبد الرحيم مارديني، دار المحبة، دمشق، و دار آية، بيروت، ط1، 2002-2003م.

- محمد عبد الجبار التفري:

- المواقف والمخاطبات، آرثر اربوي، تقديم د. عبد القادر محمود الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م.
- نور الدين أبي الحسن علي بن يوسف الشطرنوفّي:
- بهجة الأسرار و معدن الأنوار في مناقب القطب الزبائني الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني، تح: د/ محمد حسني مصطفى، دار القلم العربيّ، سوريا، حلب، ط1، 2003م.
- القشيري أبو القاسم:
- الرسالة القشيرية في علم التصوف، تح: معروف مصطفى رزيق، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003م.
- الجيليّ (الشيخ عبد الكريم بن ابراهيم):
- الإنسان الكامل في معرفة الأواخر و الأوائل، تح: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.
- كشف الغايات في شرح ما اكتنفت عليه التحليلات (متن التحليلات الإلهية للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي)، تح: محمد عبد الكريم النمرّي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.
- الطوسيّ، أبو نصر السراج:
- اللمع، تح: عبد الحليم محمود و طه عبد الله سرور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ومكتبة المثني، بغداد، 1960م.
- مصطفى بن سليمان بالي زاده الحنفيّ:
- شرح فصوص الحكم لابن عربيّ، تح: الشيخ فادي أسعد ناصيف، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.
- عبد الرزاق القاشانيّ:
- لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام تح: أ.د/ أحمد عبد الرحيم السايح، والمستشار توفيق علي وهبة، و أ.د/ عامر التجار، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2005م.
- معجم اصطلاحات الصوفية، تح: د/ عبد الخالق محمود، مكتبة الآداب، القاهرة، ط3، 2007م.
- اصطلاحات الصوفية و يليه رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال، تح: د/ عاصم إبراهيم الكيتالي الحسيني الشاذليّ الدرقاويّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.
- مُلاً حسن بن موسى البانيّ القادريّ:
- شرح حكّم الشيخ الأكبر سيدي محي الدين بن عربيّ، تح: الشيخ أحمد فريد المزديّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2006م.
- محمد أحمد عليّ:
- مقامات العرفان، مؤسّسة الانتشار العربيّ، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.
- الشيخ عبد الغنيّ بن إسماعيل التابلسيّ:
- خمرة الألحان و رنة الحان، شرح رسالة الشيخ أرسلان، تح: الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2000م.
- أبو حيّان التوحيديّ:
- الإشارات الإلهية، تح: عبد الرحمن بدويّ، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1981م.
- ابن عطاء الله السكندريّ:
- كتاب الحكّم، إعداد وتقديم: د/ عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبوليّ.

-أحمد زروق الفاسي:

-شرح الحكيم العطائية، تح: مصطفى مرزوقي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003م.

- محمد أحمد علي:

-مقامات العرفان، دار الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.

\*- نعني بالشعر العادي، الشعر الذي أُلغناه منذ العصر الجاهلي إلى يومنا الحالي، والذي يُعبر فيه صاحبه عن رؤية كونيّة (دنيويّة) بالخصوص، وهو بالتالي غير الشعر الصوّفي، لأنّ صاحبه يُوظف عناصر التعبير الشعريّ العادي، مُعبّراً به عن رغبة فردوسية، وبالتالي نجد هذا اللون من الشعر يعتلي خوارق الوضع اللغويّ من ناحية التصوير؛ ومن ثمّ فلغته- في تقديرنا- أقرب من أن تُنعتّها باللُغة الغلبا، لأنّ هذه الأخيرة تعمل على "إلغاء محدودية الدلالة في لغة الشعر، والتحوّل إلى الرمزية المطلقة، وإلى مبدأ التّجاوز والاتّساع المطلق، وخرق مثالية الوضع والعرف، وألحُوج المتواصل على قوانين البناء المنطقيّ المحدود، ومدّ عمليّة الاسناد وإطلاق سراح المعنى إلى حدّ التحرّر من فكرة عقلائيته، والانتقال به من حدود الوظيفة الذهنية أو التمثيلية المتعارفة إلى الوظيفة العاطفية الانفعالية أو المزاجية غير المحدودة." يُنظر: د/ أحمد محمد معتوق: اللّغة الغلبا، دراسات نقدية في لغة الشعر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م، ص: 11.

3- لقوله تعالى: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [سورة هود، الآية 73]، وقوله جلّ و علا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [سورة الأحزاب، الآية: 33] وقال رسول الله صلّ الله عليه وسلّم: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ أَفْرَاقاً فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وَجَعَلَهُمْ قِبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ، وَجَعَلَهُمْ بِيوتاً فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ بَيْتٍ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتاً، وَخَيْرُكُمْ نَسَباً» أخرجه الترمذي في الحديث رقم 3607، والإمام أحمد في المسند مجلد 1، ص: 210، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم 1605، والسلسلة الضعيفة رقم 3073.

4- و قد قال: مدحي مفروز كالحليب بيض صافي صافي من عزة القطوف

نمدح سيد العباد طه المقطافي ما دامت عيني تشوف

فلا تكاد تقرأ قصيدة من قصائده خالية من مدح سيد المرسلين. (للاطلاع، يُنظر: منشورات جمعية آفاق مستغانم، سيدي لخضر بن خلوف، حياته وقصائده، منشورات دار الغرب للتشر والتوزيع، وهران، ج1، ص: 47).

5- لقوله: الله يرحم قایل لبيات لكحل و اسم باباه عبد الله

المشهور اسمه في لنعات مغراوي جدّه رسول الله

و أمه جات من القرشيات اليعقوبية لالا كلة

(يُنظر: منشورات جمعية آفاق مستغانم، المرجع السابق، ج1، ص: 24).

6- المرجع نفسه، ص: 67، 94.

7- ابن عربي: المعرفة، تح: محمد أمين أبو جوهر، دار التكوين، حلب، دمشق، ط2، 2006م، ص: 21.

8- يُنظر: منشورات جمعية آفاق مستغانم، المرجع السابق، ج1، ص: 162.

9- عبد الكريم الجيلبي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، المصدر السابق، ص: 85.

10- يُنظر: منشورات جمعية آفاق مستغانم، المرجع السابق، ج1، ص: 232.

11- جمال الدين خيارّي: أغراض الشعر الشعبيّ في الجزائر، مجلّة الثقافة، عدد43، 1978م، ص: 49.

12- يُنظر: المرجع نفسه، ص: 21.

13- الطوسي: اللّمع في التّصوّف، المصدر السابق، ص: 68.

14- المصدر نفسه، ص: 68.

15- منشورات جمعية آفاق مستغانم، المرجع السابق، ص: 74.

16- المرجع نفسه، ص: 141.

17- لا يستدعي المقام هنا تبسيط معنى مقام التوبة و تذليله بسهولة، ولذلك أُشيرُ على من يتبغي معرفة هذا المقام أن يُعرجَ على كتاب اللّمع في التّصوّف للطّوسيّ، ص: 68-69، وبشرح أكثر تفصيلاً في كتاب: لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام للقاشانيّ، ج1 من ص: 287 إلى ص: 296.

18- الطّوسيّ: المصدر السابق، ص: 71، 72. و أيضاً: القاشانيّ: لطائف الإعلام، المصدر السابق، ج2، ص: 415، وينظر: محمّد أحمد عليّ: مقامات العرفان، المرجع السابق، ص: 76، وهذا فصل يتحدث فيه المؤلّف عن مقام الزّهد، بشيء من التّفصيل، وللتّفصيل أكثر، يُنظر: الإمام أحمد بن حنبل الشّيبانيّ، الزّهد، خرّج أحاديثه: محمّد بن عياديّ بن عبد الحلّيم، مكتبة الصّفا، القاهرة، ط1، 2003م. ويُضيف الطّوسيّ رحمه الله تعالى قائلاً: "والزّهاد على ثلاث طبقات:

فمنهم المبتدئون: وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك، وخلت قلوبهم بما خلت منه أيديهم، كما سُئل الجنيّد رحمه الله عن الزّهد، فقال: تخلى الأيدي من الأملاك، وتخلّى القلوب من الطّمع، وسئل سريّ السقطيّ رحمه الله عن الزّهد، فقال: أن يخلو قلبه بما خلت منه يداه.

وفرقه منهم متحقّقون في الزّهد: وصفهم ما أجاب رُويم بن أحمد رحمه الله، حين سُئل عن الزّهد فقال: ترك حُطُوظ النّفس من جميع ما في الدّنيا، فهذا زهد المتحقّقين، لأنّ في الزّهد في الدّنيا خطأ للنّفس، لِمَا في الزّهد من الرّاحة والثّناء والحمدة، واتّخاذ الجاه عند النّاس، فمن زهد بقلبه في هذه الحُطُوظ فهو متحقّق في زهده.

والفرقة الثالثة: علموا و تيقنوا: أن لو كانت الدّنيا كلّها لهم ملكاً حلالاً، ولا يُحاسبون عليها في الآخرة، ولا ينقص ذلك بما لهم عند الله شيئاً ثمّ زهدوا فيها لله عزّ وجلّ، لكان زهدهم في شيءٍ منذ خلّقها منذ خلقها الله تعالى ما نظر إليها، ولو كانت الدّنيا تزناً عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة من ماء، فعند ذلك زهدوا في زهدهم، وتابوا من زهدهم."

وطائفة العارفين بالله لا يعدّون مجرد التّرك زهداً، لأنّ التّارك للشّيء عندما يتركه بجوارحه، فرمّا كان مشغولاً به بقلبه، وهؤلاء هم الزّهّاد غير العارفين، الذين يشترّون بمتاع الدّنيا متاع الآخرة. أمّا الزّهّاد العارفون، فهم الذين لا يكون إعراضهم عن متاع الدّنيا وطبيعتها لذلك الغرض الذي نحاه غيرهم، بل لغرضين آخرين: أحدهما: في حالة التوجّه إلى ربّه، وثانيهما: عند رجوعه من عنده.

أما ما هو له عندما يتوجّه إلى الحقّ، فإنّه حينئذٍ يعرض عن كلّ ما سواه تنزيهاً لسيره عن الاشتغال بغير ربّه. وأمّا ما هو عندما يرجع من الحقّ إلى الخلق، فهو أن يعرض عمّا سوى الحقّ من جهة أنّه تكبّر بالحقّ على الباطل.

وإذا كانت هناك أصناف للزّهد، كانت أيضاً هناك مراتب له، وهي - كما ذكرها القاشانيّ رحمه الله -:

زهد العامّة: التّنزّه عن الشّبّهات بعد ترك الحرام، حذراً من المعتبة، وأنفة من المنقصة، كراهة مساوئ المُسّاق.

زهد أهل الإرادة: التّزاهة عن الفُضُول بترك ما زاد عمّا تحصلُ به المسكّة، وبقاء الرّمق لقدرة البلاغ من الثّوت اغتناماً للفراغ إلى عمارة الوقت، والتّحلّي بحلية الأنبياء والصّدّيقين.

زهد خاصّة الخاصّة: هو إعراضهم عن كلّ ما سوى الله من الأغراض والأعواض، الظّاهرة أولاً، والباطنة ثانياً، وعن كلّ ما هو غير ثالثاً، واعلم أنّ الزّهد يتضمّن الرّجاء والرّغبة والتّبتّل...

الزّهد في الزّهد: معناه استحقاقك لِمَا زهدت فيه، ولهذا كان الزّهد في الدّنيا سيّئة في نظر الحواصّ، فإنّ ما سوى الحقّ سبحانه وتعالى أيّ شيءٍ هو حتّى يرغب فيه أو عنه، ومن تحقّق بهذا النّظر استوت عنده الحادّثات، بتحقيقه شمول إرادة الحقّ لجميع المرادات.

19- التمكن- كما قال القاشاني في مؤلفه السابق ج1، ص: 282 - عبارة عن غاية الاستقرار في كل مقام، بحيث يصح لصاحبه القدرة على التصرف في الفعل أو الترك، وأكثر ما يُطلق في اصطلاح الطائفة على من حصل له البقاء بعد الفناء، وتارة يُطلق التمكن على ما قبل ذلك من المقامات، ولهذا جعلوا التمكن على مراتب ثلاث؛ تمكن المريد، وتمكن السالك، وتمكن العارف.

20- والصوفي يلجأ في أغلب الأحيان إلى التوسل بالقرآن الكريم، والكتب المنزلة، وبالأنبياء والصالحين وبالأماكن المقدسة. يُنظر: منشورات جمعية آفاق مستغانم، المرجع السابق، ج1، ص: 74-78.

21- يُنظر: المرجع نفسه، ج1، ص: 63-67، 161، 177.

22- نفسه، ص، 91.

23- الطوسي: المصدر السابق، ص: 265.

24- نقلاً عن: د/ عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر: نشأتها ونظامها وروادها، دار المعارف، مصر، ط5، ص: 48.

25- يُنظر: منشورات جمعية آفاق مستغانم، المرجع السابق، ج1، ص: 92، 95، 96.

26- سورة الأحزاب، الآية: 56.

27- نفسه، ص: 136.

28- وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند، ج2، رقم 332.

29- يُنظر: منشورات جمعية آفاق مستغانم، المرجع السابق، ص: 178.

30- يُنظر على سبيل التمثيل لا الحصر: يوسف بن يحيى بن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، تح: أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، 1984م، ص: 319.

31- عبد الوهاب الشعراي: الطبقات الكبرى (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج1، ص: 133.

32- نقلاً عن: محمد الطاهر علاوي، العالم الرباني سيدي أبي مدين شعيب، ج1، دار الأمة، برج الكيفان، الجزائر، ط1، 2004م، ص: 14.

33- منشورات جمعية آفاق مستغانم، المرجع السابق، ص: 238.